

غسان سلهب والزمن المعلق

■ سينما غسان سلهب قائمة على العلاقة بالزمن. الزمن غير الخطّي، بل المستعصي على البنية الروائيّة. الزمن المنقطع إلى حد التلاشي. لذا ليس هناك أي احساس بالوقت في فيلمه الروائي الطويل الثاني «أرض مجهولة» الذي يعرض هذا المساء للمرة الأولى في لبنان، في افتتاح «أيام بيروت السينمائية» التي تنظّمها «جمعية بيروت دي سي» حتى الثالث عشر الشهر الجاري.

ليس هناك زمن، أصلاً، في فيلم هذا المخرج اللبناني الشاب الذي استقبله النقد بحفاوة في «مهرجان كان» خلال الربيع الماضي. والمقصود هنا «الزمن» بالمعنى الحسي الذي تتسع له الأطر الجاهزة. هناك ربما زمن آخر، مركّب بعناية، لا يمكن ادراكه إلا من خلال وعي المتفرّج الذي يساهم في صوغ العمل، ويلعب دوراً في اكتماله... الأحداث بدأت قبل الفيلم ولن تنتهي معه. الأحداث؟ هل يحدث شيء في فيلم «أرض مجهولة»؟ هناك شخصيات تدور في الحلقة المفرغة، وأمثلة وحكايات كثيرة متقاطعة، صور وحالات ومناخات... لكنها لا تستقيم في قالب سردي واضح. أفراد من جيل ما بعد الحرب، يهيمنون على وجوههم، بحثاً عن معنى، عن متعة، عن سعادة، عن دور، وعن مكان. يبحثون عن المكان: بيروت، أو أي مدينة مثلها عند نقطة الصفر (إذا جازت استعارة عنوان فيلم روسليني الشهير عن ألمانيا الخارجة من الحرب).

«أرض مجهولة» (أو أرض للاكتشاف) تأريخ ذاتي وشاعري لذاكرة عابرة، لحياة شخصيات ضائعة على هامش المدينة المستحيلة، تبحث سدى عن ملامحها. شبان وشابات من الجيل الذي ولد على عتبة الحرب الأهلية، وكبر فيها ومعها، وإذا بستر الدخان الأسود الذي كان يغلف المدينة، تنقش أمامه... فيبان أمامه المشهد فجأة: هوة فاعرة وأسئلة مؤجّلة ومستقبلاً ممنوعاً.

من أجمل لحظات الفيلم مشهد العرس الذي يختصر هذا الزمن المعلق، الحياة التي سحب منها نسغها، أي البهجة، يسلمط المخرج نظرة ملوّها «الكتابة اللذيذة» إلى هذا الجيل. ويمكن التوقف أيضاً عند لحظات الحب التي تغلت من أصحابها باستمرار، كلما حانت المواجهة، عند العلاقات المبتورة وصعوبة التواصل والتعبير، عند اليأس المغمس بأمل غامض وشهوة الفرح، عند الأسراف في طلب اللذة، عند القطيعة مع الآخرين... وكما في فيلم سلهب الأول «أشباه بيروت»، هناك أيضاً شخصية العائد من الغرب (مثل السينمائي ذاته) لمحاولة الاستقرار في بيروت. ولا بد من الإشارة إلى شخصية «مجنون بيروت» التي يؤديها وليد صادق بهدوء وانفصال ومسافة: مهندس معماري يترك ورشته من دون مبرر، ينقطع عن أصدقائه، ويعتكف في غرفته مع شاشة الكومبيوتر التي يعيد فوقها بناء بيروت، مدينته الوهمية، جمهوريته الفاضلة.

إنه الزمن المعلق في بيروت ٢٠٠٦، التقطه غسان سلهب بعناية، برهافة مراقب أمين للواقع، سجل نثاره، واصطاد قصصه الكثيرة، ثم حوّلها من خلال العملية الإبداعية مادة روائية (Fiction). نعيش بيروت - الآن وهنا - من خلال مجموعة من الشبان والشابات من وسط اجتماعي معين، يتكيفون مع الأفق المسدود، يحاولون أن يعيشوا الحب والأفكار والمتعة والموسيقى والمشاريع الكبيرة... مشاركتهم يتما لا يقال، ومحاولاتهم الوجودية للإفلات من المازق.

يحمل فيلم «أرض مجهولة» بصمات المرحلة، بدءاً بصوت ربما خشيش، وياسمين حمدان مغنية الهسوب كليز، يبدو المثلون (كارول عبود، عبلة خوري، ربيع مروه، وليد صادق...) على مقربة من شخصياتهم، يسبغون عليها بعضاً من ملامحهم الحقيقية وتعبهم ورغباتهم وهواجسهم وأسلوبهم، فتختلط الحدود الفاصلة بين الواقعي والتمثيلي، كأنهم يحملون تجاربهم الذاتية، ويضعونها في الفيلم. ويبدو غسان سلهب، شاعر هذا الجيل اليتيم، والشاهد على تيهه وضياعه، وسعيه إلى الخروج من الدائرة المغلقة.

يوصل سلهب في شريطه الجديد القطيعة مع السرد التقليدي، معتمداً على تعدد المستويات وتشعبها، وينتج لغة فيلمية تجعله وريث مدرسة السينما الفرنسية بامتياز. هذه اللغة هي التي تصنع نبرة الفيلم وفرادته وجرأته، وتجعله يتسع لكثير من الحزن الشفيف والرغبات الخبيثة والخيبات الصامتة. كما تجعل منه سينمائياً استغزانياً في مواجهة الخطاب السائد واللغة الرسمية... لذا يخشى أن يقتصر النقاش حول فيلمه على محورين اثنين: غياب «الحكاية»، والمساس بالمحظورات!